

الحج بين تحقيق التوحيد ونفي الشرك

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، نذكركم بنعم الله تعالى بفضائله على عباده. وإن من أكبر نعمه أن هدانا للإسلام؛ أن جعلنا مسلمين، فقد حرمت أمم كثيرة هذه النعمة التي هي نعمة الهداية، ونعمة الإسلام، واختاروا أديانا أخرى غير دين الإسلام، وهدى الله هذه الأمة الإسلامية، وأنعم عليهم بهذه النعمة، وأنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم في يوم عرفة وهو واقف بعرفة قول الله تعالى: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } . أخبر بأنه أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة وأن من أتم وأعظم النعمة أن رضي لنا الإسلام ديناً؛ فعلينا عباد الله أن نحقق هذه النعمة التي هي الإسلام الحقيقي؛ وذلك لأن كثيراً ممن ينتمون إلى الإسلام لم يحققوا الإسلام الذي هو الإذعان والانقياد لأوامر ربهم سبحانه وتعالى. نذكركم أيضاً بنعمة ثانية: وهي نعمة التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله تعالى، فإن أعظم ما أمر الله به التوحيد، وهو إفراد الله بالعبادة، وأعظم ما نهى عنه الشرك، وهو دعوة غير الله معه ونعوذ بالله. فمن وفقه الله تعالى وحقق هذا التوحيد أخلص العبادة لله عز وجل؛ فهو ممن تمت عليه النعمة، وأما من أشرك بالله أو عظم مخلوقاً جماداً أو حياً بشيء من أنواع التعظيم التي لا تصلح إلا لله؛ فإنه قد أحبط عمله، وقد أفسد أعماله وأفسد إسلامه. ولعلنا أن نذكر بعض الأمثلة على ذلك الذي هو حقيقة التوحيد، وما يصاد ذلك من الشرك، فنذكر أن عبادتنا التي تعبدنا بها أنها لله سبحانه وتعالى. فالإحرام عبادة لله تعالى؛ ولهذا المسلم المحرم يتجرد عن لباسه المعتاد تذلاً وعبودية وخصوعاً لله سبحانه وتعالى، والطواف بالبيت عبادة لله سبحانه وتعالى؛ بمعنى أن الإنسان إذا كان في الطواف يكون خاشعاً لربه وخاضعاً له ومعظماً له؛ ولهذا يجتهد في الذكر ويجتهد في الدعاء أو في قراءة القرآن -عبادات قولية، وكذلك أيضاً يخشع ويخضع ويتواضع لربه سبحانه وتعالى عبادات فعلية. كذلك أيضاً بقية أعمال المناسك كلها عبادات، الوقوف بعرفة خضوع لله سبحانه وتعالى، والمبيت بمزدلفة وذكر الله هناك امتثالاً لقوله تعالى: { فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ } هذا أيضاً عبادة؛ يعني كونهم يبغون في ذلك المكان لأن ذلك من تعظيم حرمان الله التي أمر الله بتعظيمها احتراماً لله وتواضعاً لله في قوله تعالى { وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ } ؛ يعني محارم الله ومشاعر الله { وَمَنْ يُعْظَمْ سُبْحَانَ اللَّهِ } ؛ يعني الأماكن التي جعلها الله تعالى شرائع وشعائر لعباده كقوله تعالى: { إِنَّ الصَّغَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ } . فالطواف بالبيت تعظيم لشعائر الله، والسعي بين الصفا والمروة تعظيم لشعائر الله، ورمي الجمار تعظيم لشعائر الله، كل ذلك امتثال لأمر الله، فكل ذلك نعتبره طاعة وعبادة. وإذا عرفنا أن هذه الذي تفردنا بها أنها عبادات لربنا سبحانه وتعالى، نعرف أن هناك من أفسد عباداته بنوع من الشرك سواء شركاً قولياً، أو شركاً فعلياً، وننزهمكم إن شاء الله عن مثل هذه الشركيات، ولكن نذكركم بها حتى تكونوا على حذر وحتى تعلموا خطر أولئك الذين يفعلونها، أنهم قد وقعوا في الشرك.